نظرات في سورة يوسف (6)

يوسف وإخوته

طارق مصطفى حميدة

مركز نون للدراسات القرآنية

قال سبحانه في بدايات سورة يوسف: ﴿ لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين﴾، وهذه الآية تثير عدداً من الأسئلة التي تستدعي التنبه والتفكر، ومن ثَم محاولة الإجابة، وذلك من مثل: لماذا يوسف وإخوته فقط وأين والدهم يعقوب عليه السلام، وشخصيته حاضرة في مشهد السورة الأول ومشهدها الختامي ومشاهد عديدة خلالها؟ ولمَ لمْ يأت وصف القصة بأنها قصة يوسف وامرأة العزيز مثلاً؟

إن أهمية دور يعقوب في القصة، تتجلى في أن يبين ليوسف أنه النبي القادم من آل يعقوب بعدما استمع لرؤياه، ثم يوجهه إلى ما ينبغي فعله، ثم هو يظل مع الأبناء صابراً على أذيتهم، فيما يشبه الإعذار لهم، ويظل مع الصبر الجميل يرشدهم ويحنو عليهم، ثم إن حضوره عليه السلام في بدء القصة وختامها طمأنة له أن الرسالة التي ورثها من آل إبراهيم، قد ورثها أحد أولاده واستقر بها في أحد أبرز أماكن الحضارة والمدنية، وكون يعقوب يسجد ليوسف مع الإخوة، هو عنوان القبول للتابعية الدينية والسياسية، وكيلا يتردد أحد من الإخوة أو عائلاتهم في ذلك، لمعاونة يوسف في مهمته، سيما والمطلوب توطين التوحيد في تلك الأرض، من خلال تكوين كتلة سكانية رسالية تحدث نوعاً من التأثير من خلال التوازن الديمغرافي.

أما لماذا كانت قصة يوسف وإخوته وحدهم، دون والدهم النبي يعقوب عليه السلام؟ فأولاً لأن القصة في الحقيقة هي قصة يوسف مع إخوته، ومشكلته هي معهم.

وثانياً: لأن الغاية من قصة يوسف القرآنية هي بيان تشابهها، وأكاد أقول: تطابقها، مع قصة محمد عليهما الصلاة والسلام؛ فقصة محمد مع إخوته من قريش، هي هي قصة يوسف مع إخوته، ما كان منها في العهد المكي عشية نزول السورة، أو ما ينتظره عليه السلام وقومه في قابل الأيام.

وأما عن سؤال: أين امرأة العزيز؟ فالجواب أن القصة من البدء وحتى الختام، هي قصة رسالة ودعوة، وامرأة العزيز ليست أكثر من تحدٍّ في هذا الطريق، على عظم هذا التحدي، من بين تحديات وعقبات عديدة اقتحمها يوسف متجاوزاً إياها بنجاح باهر، وقد عرضت القصة لبيان نجاح يوسف، لا لإظهار امرأة العزيز وسعيها نحو السقوط، فالقصة هنا معنية بالسلوك المتسامي الذي أظهره يوسف عليه السلام، لا بالاحتفاء بضعف امرأة العزيز،

كما يفكر الذين لا ينظرون إلى قصة يوسف إلا باعتبارها قصة عاطفية ذات نكهة جنسية، لا بل إن القصة لا تنتهي إلا بعد أن تظهر هذه المرأة نادمة مستغفرة ومؤكدة على صوابية موقف يوسف السلوكي والأخلاقي والديني، ومتبرئة من أخطائها، كل ذلك قبل ختام القصة بكثير.

كأن سورة يوسف تقول لمحمد صلى الله عليه وسلم: إن قصتك هي قصة أخيك؛ فأنت نبي وهو نبي، وقد تآمر عليه إخوته وغير إخوته، فأراد بعض إخوته قتله، ثم أُخرج من بلده وسجن، وأنت يا محمد يمكر بك إخوتك ليخرجوك أو يقتلوك أو يثبتوك.

وقد عرض عليك قومك أن تكون ملكاً عليهم، وأن تكون أكثرهم مالاً، وأن يزوجوك أجمل نساء العرب، ويوسف من قبل قد تعرض لفتنة المنصب والمال والجنس، وقد يسأل سائل: قد علمنا أنه تعرض لإغواء امرأة العزيز وصويحباتها، فمن أين زعمت بأنه تعرض لفتنة المنصب والمال؟

والجواب أن المرأة ذات منصب فهي امرأة العزيز، ومن الطبيعي أن ينتقي ذوو المناصب أجمل النساء، وقد ظهرت قوتها وشخصيتها أولاً من خلال ضعف زوجها أمامها، وعلو مكانتها على زميلاتها، ثم في تهديدها بسجن يوسف والذي لم يبق مجرد تهديد، ومثلها قادرة لو استجاب لها يوسف، وحاشاه، أن توصي بترقيته في السلم الاجتماعي والسياسي، وحيث إن المنصب في البيئات الفاسدة يستدعي المال والغنى والثراء، فقد مفهوماً تأكد أن امتحان يوسف مع امرأة العزيز هو إغراء متعدد الأبعاد!!

والسورة؛ سورة يوسف، تقول لمحمد صلى الله عليه وسلم، إن أخاك يوسف قد أصبح زعيماً في البلد الذي هاجر إليه، وكذلك سيمكّن الله تعالى لك في البلد الذي ستهاجر إليه، وسيكون مهاجرك هو مستقرك ومكان وفاتك، مثلما استقر يوسف وتوفي حيث هاجر، ثم إن الذين تآمروا على يوسف قد أصبحوا تحت حكمه وعفا عنهم، والمطلوب منك بعد إذ يصير إخوتك الذين يتآمرون عليك تحت حكمك أن تعفو عنهم، وهو ما جرى فيما بعد يوم الفتح.